

الأستاذ: لخضر بولطيف

مقياس: تقنيات البحث التاريخي

مستوى: السنة الأولى ماستر تاريخ الغرب الإسلامي

المحاضرة الخامسة: الطالب الباحث بين الشهادة والتكوين (القسم: 02)

تذكير:

كنا قد تناولنا في القسم الأول من هذه المحاضرة مدلولات ارتباط الطالب الباحث بمبدأ طلب العلم من جهة (= الطالب الدارس)، والتطلع إلى آفاق إنتاج المعرفة من جهة ثانية (= الطالب الباحث)، وما قد يعنيه الذُّهول عن ذلك من ذهاب الطالب ضحية اختزاليةٍ مقبلةٍ، تجعل العلمَ قرينَ تحصيل الشهادات، والبحثَ رديفَ حيازة الترقّيات.

* * *

ولما كان الطالب الباحث هو قبل كل شيء إنسان، لا ينفك عن منظومة قيمية، تحكم المجتمع الذي نشأ فيه، وينتمي إليه، فقد وجب التذكير ببعض الخلال التي درج كبار الأساتيد الباحثين على التنويه، والدعوة إلى التحلي بها، على اعتبار أنها تقوم مقام المؤهلات، التي يتعيّن على المتلبّس بالبحث العلمي، أن يكون مستجمعا لها.

01- الشغف بالمعرفة:

أن يصير المرءُ باحثا ليس صدفة أو ضربة حظ، إنما هو إنما هو استعداد نفسي يعتضد بمِرّاس عملي، وهو صفة وهبّية قبل كونها صفة كسبيّة، فكما جُبِلَ البعض على حب المال، واكتناز الثروات، أو وُلِعَ البعض بالنفوذ وممارسة السلطة، أو فُتِنَ البعض الآخر بالشهرة وحب الظهور، فإن ثمة نفوسا أُشْرِبت حب العلم، واكتنفها الشغف لاكتساب المعرفة، ومثل هذا الاستعداد الفطري إن وُجِدَ لدى الإنسان، سيكون أكبر حافز للانتساب إلى حقل البحث العلمي، وتحقيق التبريز والشُّفوف فيه، يهون -في سبيل ذلك- ما يواجهه الباحث ويكابِد من تحديات وضغوط ومغريات.

02- الأهلية والكفاءة:

إن الاستعدادات النفسية الوهّبية لوحدها، لن تكون مُجدية للمنتسب إلى حقل البحث العلمي، ما لم يكن متأهّباً لخوض غمار البحث، متّخذاً عدّته اللاّزمة. فليس خليقاً بذى ثقافة ضخّلة، واطلاع ضئيل، أن يجازف بالكتابة، كما لا ينبغي لمن لا يمتلك ناصية لغة مصادر تخصصه، أن يُمَيّ نفسه بأن يصير يوماً في زُمرة الباحثين؛ فإن من لا يسعه التعاطي المباشر مع المصادر، ويتوسّل إليها -بدلاً عن ذلك- بما اقتبسته منها المراجع، سيظل مجرد قارئ هاوٍ، رهين أنظار غيره، فإذا انضم إلى عدم امتلاكه لغة البحث، ما يُشاهد لدى عدد من المشتغلين بالكتابة من قلة أنسة بدائرة تخصصهم، كان ذلك من قبيل التطفّل على صنّعة الغير.

03- الصبر والمثابرة:

يوطّد الشغف بالمعرفة، والتوقّر على الأهلية، عزمَ الباحث على مواجهة الصّعاب، والصبر على الشدائد، وتجاوز العقابيل، فإن إنجاز بحثٍ ليس تسوية وضعيّة، كما يحلو لبعض الدخلاء نعته، وتزيينه للأغرار، إنما البحث معاناة ومكابدة، لأنه لون من الخلق والتوليد والابتكار، وشتّان ما بين اجتزاء جُمَل، ورصّف كلمات، وما بين تسريح العقل في النصوص، فالأول صنيع الواقفين على المباني والقشور، والثاني صنيع الغائصين عن المعاني واللُّباب. ولما كان الأمر كذلك، فكان متعيّنا على من اختار سبيل البحث أن يتدرّج بكثير من الصبر والأناة، لا يكُلُّ، ولا يملُّ، بل ينبغي ألاّ تزيده العقبات الكأداء سوى إصرارٍ على المضيّ في وُجهته.

04- الحس النقدي:

لا تتفق صنّعة المؤرخ وطبع السداجة، وإذا كان من خُلُق المسلم أن يُحسّن الظنّ بغيره، فإن أوكد ما يتعين تخلّق المؤرخ به في صنّعته، هو تقديم الشك، وتأخير التسليم، وشعاره في ذلك إن كل الإفادات والروايات مشكوك في أمرها حتى تثبت صحتها، فلا ركون إلى قول سلفٍ أو رأي خلفٍ، مهما علت منزلتهم، أو ذاع صيتهم، إنما ينبغي أن يُخضّع كل قول للنقد، ويُعرض كل رأي للتححيص، وباستثناء نصوص الوحيين، فلا قداسة لنص. ومع ذلك فلا يحسّن بالمؤرخ أن يصير مهووساً بالشك، مُسرفاً في أعماله، على غرار ما نعاينه لدى عدد من الحدائين، الذين يردّون النصوص، ويوهّنون الروايات، ببيادي الرأي وغريب التأويل.

05- الخيال الملهم:

ليس إعمال النظر في النصوص والروايات التاريخية، هو الأداة الوحيدة، التي بوسع الباحث في التاريخ المراهنة عليها، للظفر بالحقائق، فكم من الفراغات والمساحات البيضاء، من اللامعبر عنه واللامفكر فيه، تتخلل النصوص والروايات، وتُدخل الباحث في دوامة من الحيرة والتساؤلات، عمّا قد يُبدد به ذلك الغموض، ويخترق به سُجف الظلام المُسدلة على الحقائق المتوارية في غياهب الماضي السحيق، وليس أمامه -حينئذ- إلا ما قد يتمتع به من حدس نقّاذ، وخيال ملهم، يعبّر على متنها ظواهر النصوص إلى بواطنها، وملفوظ الروايات إلى مضمورها، مُستحضرا شُخوص التاريخ وماجرياته، مُحاولا تقمّصها واستبطانها.

06- الموضوعية (التجرد والإنصاف):

درج البعض على الزعم، حتى لأضحى في حكم المسلّمات، أن الموضوعية هي التزام الجياد، وعدم التحيز، لكن أحدا من مُمارسي البحث العلمي على أصوله، قد لا يفهم حقّ الفهم، كيف يسوغ الوقوف على مسافة واحدة من الخير والشر، ومن الحق والباطل، أو كيف يتأتى للمرء أن يُقارب ظاهرة ما من فراغ، بحيث يكون قد انفصل عن منطلقاته الفكرية وخلفياته العقدية. بينما لا تعدو الموضوعية -في واقع الأمر- أن تكون التجرد عن الميول والأهواء، وتحري النزاهة في القول، والإنصاف في الحكم، فلا تعارض بين المنظومة الإيمانية التوحيدية والتحقق بالموضوعية، بل "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ".

07- الصدق والأمانة:

مما لا يأتلف في الذهن، وتستنكره العقول الحصيفة، وتمجّه الطباع السليمة، اجتماع شرف العلم، ومقام البحث، مع الكذب والتدليس. وإنها لمن المفارقات الغريبة التي أبتلي بها عصرنا، على أنه لم تخل منه أعصر سابقة، أن يجري السطو على أفكار الآخرين واجتهاداتهم وتخريجاتهم، فيدعمها غيرهم، وينسبها لنفسه، ثم لا يجد حرجا في الإعلان، والتقدم بها، لنيل الشهادات والترقيات، ولم يتساهل سلفنا الصالح في التجريح والإنكار على من كان هذا دأبه، حتى لكان ذلك سببا في سقوط عدالته، وإطراح ما كتب. ومما أثير من كلامهم: "إن نسبة الفائدة إلى مفيدها من الصدق في العلم وشكره، وإن السكوت عن ذلك من الكذب في العلم وكفره".

08- الجرأة والاعتداد بالنفس:

يَهَيَّبُ أَكْثَرَ الْبَاحِثِينَ الْمُبْتَدِئِينَ مِنَ الْإِدْلَاءِ بِأَرَاءِهِمْ الْخَاصَّةِ أَوْ أَنَّ تَكُونَ لَهُمْ وَجْهَاتٌ نَظَرٌ مُسْتَقَلَّةٌ، وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى ذَلِكَ الْاِكْتِفَاءَ بِسَرْدِ النُّصُوصِ، وَعَرَضِ الْأَرَاءِ، دُونَ نَقْدِ أَوْ تَحْلِيلِ، وَلَا تَأْيِيدِ أَوْ تَفْنِيدِ، فَإِنَّ نَبِيحَ بَيْنِ الْفَيْئَةِ وَالْأُخْرَى فِي عِدَادِ الطَّلَابِ مِنْ لَهُ جَرَاءٌ وَاعْتِدَادٌ بِالنَّفْسِ، أَلْفَى مِنْ حَوْلِهِ مَنْ يَثْبُطُ هِمَّتَهُ، وَيُلْقِي فِي رُوعِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْغُرُورِ وَالتَّطَاوُلِ الْمَذْمُومِينَ، وَأَنَّ عَلَى الْبَاحِثِ فِي أَوَانِ الطَّلَبِ أَنْ يَلْزِمَ حُدَّهُ، وَلَا يُحَدِّثَنَّ نَفْسَهُ بِتَعَقُّبِ مَنْ يَقْرَأُ لَهُمْ. وَإِنَّهُ لَا يَخْفَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذَا الْمَسْلُكُ الْقَائِمُ عَلَى التَّهْوِينِ وَالْإِزْرَاءِ، مِنْ جَنَائِدِ عَلَى الْمَلَكَاتِ وَالْمَوَاهِبِ، وَصَدِّ عَنْ ارْتِيَادِ آفَاقِ الْإِبْدَاعِ وَالْاِبْتِكَارِ، وَالْحِيلُولَةِ دُونَ نَمَاءِ شَخْصِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ إِيْجَابِيَّةٍ مُنْتَجَةٍ.

09- التواضع والاعتراف بالخطأ:

إِنَّ التَّشْجِيْعَ الَّذِي قَدْ يَخْطِئُ بِهِ الطَّلَابُ الْبَاحِثِ مِنْ لَدُنْ أَسَاتِذَتِهِ، وَمَا قَدْ تَنَالَهُ أَعْمَالُهُ مِنْ رِضَا وَتَنْوِيهِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِرُؤُوسِهِ وَاغْتِرَارِهِ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّ آفَةَ الْعِلْمِ الْكِبَرِ، وَإِنَّمَا يَتَعَيَّنُ عَلَى الْبَاحِثِ أَنْ يُوْطِنَ نَفْسَهُ عَلَى خُلُقِ التَّوَاضِعِ، وَالْإِقْرَارِ بِقُصُورِ الذَّاتِ الْبَشَرِيَّةِ، مَا يَجْعَلُهَا عُرْضَةً لِلْأَخْطَاءِ وَالتَّهْنَاتِ، فَإِنَّ تَيَقَّنَ ذَلِكَ وَلَمْ يُزَايِلْهُ، تَهَيَّأَ لَهُ التَّبَصُّرُ بِعَيْبِهِ، وَوَدَّ لَدَيْهِ الْقَابِلِيَّةَ لِلتَّرَاجُعِ عَنْ أَعْلَاطِهِ، وَإِصْلَاحِ أَعْطَابِهِ. إِنَّ التَّوَاضِعَ لَا يَتَنَاوَى وَالْاِعْتِدَادَ بِالنَّفْسِ، بَلْ إِنَّ كِلَاهُمَا مَكْمَلٌ لِلاُخْرَى، فَكَمَا لَا يَنْبَغِي لِلْبَاحِثِ أَنْ يَزْدَرِي نَفْسَهُ، وَيَسْتَهَيِّنُ بِمَا يَصْدُرُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ -أَيْضًا- لَا يَحْسُنُ بِهِ الْمَغَالَاةُ فِي تَقْدِيرِ تَمَيِّزِهِ، وَالِاسْتِعْلَاءُ عَنِ النُّقْدِ وَالتَّصْوِيْبِ.

10- التنظيم والتنسيق:

لِلْبَحْثِ جَلْبَةٌ فِي الذَّهْنِ قَبْلَ أَنْ يَجِدَ طَرِيقَهُ إِلَى الْأَوْرَاقِ، وَبِقَدْرِ مَا يَكُونُ ذَهْنُ الْبَاحِثِ مُنَظَّمًا وَمُرْتَّبًا، بِقَدْرِ مَا يَنْعَكِسُ ذَلِكَ عَلَى أَدَائِهِ، فَإِنَّ اسْتِقْرَاءَ الْأَحْدَاثِ فِي تَشْعِيْمِهَا، وَتَتَبِعِ الرُّوَايَاتِ فِي تَفَاوُتِهَا، يَقْتَضِيَانِ مِنَ الْبَاحِثِ أَنْ يَكُونَ مُشْتَمَلًا عَلَى مَعْيَارِ دَقِيقٍ فِي الْمَوَاقِفِ وَالتَّنْسِيقِ، حَتَّى إِذَا دَلَّفَ إِلَى بَسْطِ مَادَتِهِ، وَإِيرَادِ شَوَاهِدِهِ، أَجَادَ عَرْضَهَا وَإِبْرَازَهَا، وَكَانَ ثَمَّةَ مَنْطِقٍ دَاخِلِيٍّ يَحْكُمُهَا، وَنَسَقٍ وَاضِحٍ يَنْتَظِمُهَا. وَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يَزَالُ يُطَالَعُ بِمَا لَا يَكَادُ يَقْضِي مِنْهُ الْعَجَبُ، مِنْ كِتَابَاتٍ تَحْتَشِدُ فِيهَا الْمَعَارِفُ، وَتَتَزَاحَمُ فِيهَا الْأَفْكَارُ، لَا تَكَادُ تَمَيِّزُ فِيهَا بَيْنَ الْمُتَقَدِّمِ وَالتَّأَخَّرِ، وَلَا بَيْنَ النَّاسِخِ وَالتَّنَسُوخِ، وَلَا بَيْنَ مَا يَتَبَنَاهُ الْكَاتِبُ وَمَا يُعْرَضُ عَنْهُ، حَتَّى لِيَتَعَدَّرَ أَنْ يُرْجَعَ مِنْ ذَلِكَ بِطَائِلِ،

✚ لمزيد تفصيل حول الموضوع، يمكن الرجوع إلى:

- حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط2، القاهرة: دارالمعارف، 1964، ص17-20.
- سعد الدين السيد صالح: البحث العلمي ومناهجه النظرية -رؤية إسلامية-، ط2، جدّة: مكتبة الصحابة، القاهرة: مكتبة التابعين، 1993، ص48-57.
- محمد التونجي: المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، ط2، بيروت: عالم الكتب، 1995، ص43-46.
- مهدي فضل الله: أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ط2، بيروت: دار الطليعة، 1998، ص19-34.
- عبد الإله بنمليح ومحمد إستيتو: مناهج البحث في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية -البحث التاريخي أنموذجاً-، ط1، القاهرة: داررؤية للنشر، 2006، ص36-42.